الفصل الثالث عشر
الآثار الأدبية لغير المسلمين من الأندلسيين

(أ) المستعربون

ف١٤١- إشارات آلْبَرُو القرطبي. القس بنْجِنسْيُس. ربيع بن زيد الأسقف.

(ب) اليهود

ف١٤٢- أبو زكريا حَيُّوج. ابن جبرول. بحيا بن فاقوذا. ابن صديق.

ف١٤٣- موسى بن عزرا. يهوذا هلاوى (هاليفي). أبراهام بن داود. الجزيري. بنوطيبون.

ف١٤٤- موسى بن ميمون. المترجمون.

لا بد لنا من أن نلم بآثار غير المسلمين من الأندلسيِّين حتى يكتمل لنا الإلمام بالمحصول الأدبي للأندلس الإسلامي، ذلكَ؛ لأنهم شربوا من مناهل الثقافة العربية، واستعملوا لغتها.

أ ـ المستعربون

ف ١٤١ -إشارات ألْبَرُوُ القرطبي. القس بنْجِنْسْيُسْ. ربيع بن زيد الأسقف

كان الإنتاج الأدبي للمستعربين ضئيلاً، سواء باللاتينية أو بالعربية، وقد تأثرت حياتهم الاجتماعية بالإسلام ونظمه تأثرًا بعيدًا، ومن مصاديق ذلك تلك الحقيقة التي يعرفها كل الناس، وهو أنهم كانوا يُؤثِرون استعمال لغة العرب وأسمائهم وأزيائهم، ويجتهدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم.

ولا يجهل أحد حَسَرات ألْبَرُو القرطبي؛ فقد طالما رددها المؤلفون؛ وهي تتحدث في جلاء عن ولع نصارى الإسبان بالأدب العربي، فهو يقول: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويُقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيًا جميلاً صحيحًا. وأين تجد الآن واحدًا – من غير رجال الدين – يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن – سوى رجال الدين – يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة! إن الموهوبين من شُبَّان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويُقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرِّحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب.

فإذا حدَّثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم، يا للألم! لقد أُنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد

بين الألف منهم واحدًا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابًا سليمًا من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددًا عظيمًا يجيدونها في أسلوب منمَّق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًّا وجمالاً»[1].

ومن أسف أننا لا نجد بين أيدينا شيئًا من هذا الإنتاج الأدبي الذي يشير إليه آلْبَرُو، ولكن كل ما ذكره حقيقي تؤيده تلك القصائد التي نجدها في ختام مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية في مدريد، يضم مجموعة من القوانين الكنَسيّة وقراراتها مرتبة أبوابًا على حسب موضوعاتها، ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قس يسمى بنْجِنْسْيُس(*) والكتاب كله مهدى إلى الأسقف عبد الملك، وقد نُظمت عبارات الإهداء في أبيات عربية لا تفترق في شيء عما ينظمه المسلمون في مثل ذلك المقام شكلاً وموضوعًا؛ وإليك طرفًا منها:

كتابٌ لعبد المالك الأسقف النَّدْبِ ... جوادٍ نبيلِ الرِّفْدِ في الزمنِ الجَدْبِ

هُمامٍ ذكيِّ الحَدْسِ واحدِ عصرِهِ ... عليمٍ كريمٍ ذي حُلومٍ وذي لُبِّ

يُجَدِّدُ فضلُ اللهِ فينا بفضلِهِ ... وعمَّ بهِ كلَّ الأنامِ هُدى الربِّ

(*) اسمه في المراجع الإسبانية El presbftero Vicente وقد أخذت هذه الصورة العربية من كلامه هو نفسه، فقد قال في نهاية الجزء الثامن من ذلك القانون الكنسي المشار إليه هنا: «تممت وأكملت، أنا بنجنسيس القس الخاطي، عبد عبيد المسيح، هذا الجزء الثامن من القانون المقدس، يوم الأحد، في الوقت الثامن من ذلك النهار. وهو أول أحد من الصُّيام الأربعين الذي يُتلى فيه خبر المرأة السامرية التي استسقاها سيدنا المسيح الما في بير يعقوب».

CF: FRANCISCO JABIER SIMONET, Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid, 1903)p.720.

والصورة العربية للاسم هي نفس صورته اللاتينية Vincencius، وقد ضبطت الكلمة بناء على ذلك.

فـلا زال في عـزٍّ مـن اللـه شـاملٍ مـدى انهـلَّ مُـزْنٌ في قـرى الأرضِ بالسَّكْبِ[*]

والكثير من الكتب اللاتينية التي كتبها المستعربون تحمل هوامشها شروحًا وتعليقات عربية. وبين أيدينا كتاب لاتيني عنوانه «كتاب تفصيل الزمان ومصالح الأبدان»، وهو تقويم فلكي مناخي زراعي [«وفيه ذكر منازل القمر، وما يتعلق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه»][*]، يُظن أن الذي ترجمه ووضعه في هذه الصورة اللاتينية جيراردو الكريموني. ومؤلفه هو الأسقف ريكيموندو الذي يسميه مؤلفو العرب ربيع بن زيد الأسقف، وقد كان في خدمة عبد الرحمن الناصر، وكانت له علاقات موصولة بيوحنا أسقف جُرْتِز. ولدينا تاريخ حياة الأخير [المسمى:

Vita Joannis Corgiensis auctore ut videtur Abbare S.Arnulpho Meties

وَصَفَ فيه رحلته إلى قرطبة سفيرًا للإمبراطور «هوتو» لدى عبد الرحمن الناصر]، وقد أورد في ثناياها من الملاحظات ما يدل على اتجاه المستعربين نحو الإسلام اتجاهًا شديدًا [*]، وكان ربيع بن زيد هذا سفيرًا للناصر لدى هوتو (Otto) إمبراطور ألمانيا. وقد وضع عَرِيب بن سعد (ف٦٥ب) تقويمًا مماثلاً لتقويم ربيع [*][٢]

(*) نفس المصدر، ص٧٢١.

(*) ابن سعيد: ذيل على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس، انظر نفح الطيب للمقري (ط. محيي الدين) جـ٤، ص١٧٦.

(*) انظر سيمونيت: تاريخ مستعربي إسبانيا (المذكور في التعليق التالي) ص٦١١.

(*) عبارة المؤلف هنا فيها خلاف لما أجمع المؤرخون عليه بشأن كتاب الأسقف الربيع ابن زيد المشار إليه، وسيرد بيان ذلك بالتفصيل في «صلة تاريخ الفكر الأندلسي» الذي نجمع فيه التعليقات كلها؛ ولكني أنبِّه هنا إلى ما ذكره دوزي وأيده فيه سيمونيت بخصوص هذا الكتاب وعلاقته بتقويم عريب بن سعد القرطبي الكاتب، وهو يتلخص فيما يلي:

=

ولا يشك أحد اليوم فيما ساهم به الإسبان أهل البلاد من نصيب عظيم في تطور الثقافة الإسلامية. وإذا كنا لا نجد بين أيدينا من أدلةٍ تمكّنهم من اللغة العربية قدرًا أفضل من هذا الذي نراه اليوم، فإنهم – من غير شك – ليسوا بمسئولين عن هذا. فقد ظلوا يستعملون هذه اللغة زمنًا طويلاً بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة، وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمَّوْن بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التي خلفها لنا مستعربو طليلطة . هذا على الرغم من أننا لا نجد فيما بين أيدينا من تراث المستعربين شيئًا ذا قيمة أدبية.

=

وضع عريب بن سعد تقويمه المعروف في سنة ٩٦١/٣٤٩، وقد ضاعت نسخه العربية ولم نعثر إلا على صورة منه مكتوبة بحروف عبرية (وإن كانت عربية اللغة)، فقرأها دوزي واستطاع أن يخرج منها النص العربي للتقويم وسماه تقويم قرطبة لسنة ٩٦١، وقبيل ذلك بقليل وجد جيُرْمُو ليبري نسخة من الترجمة اللاتينية لتقويم الأسقف ربيع بن زيد، فنشرها ذيلاً على كتابه المسمى: تاريخ العلوم الرياضية في إيطاليا في سنة ١٨٣٥، وقارن دوزي بين هذا النص وتقويم عريب بن سعد المذكور آنفًا، فتبين أن النص اللاتيني المنسوب إلى ربيع بن زيد ترجمة لتقويم عريب مع بعض الزيادات. وقد بين هذا الاستنتاج إدواردو سافدرا وخافيير سيمونيت.

Cf: GYERLLERMO LIBEI; Histoire des dciences marhemariques en Italie. Paris, 1835.

R. DOZY: Le Calendrier de Cordone de L'annee 961.Leyde,1873.

:Die Cordvaner Arib ibn Saed der Sekretar und Rabe' ibn Zaid der Bischef. ZDNG.bol.XX.

E. SAABEDRA: Estndio sobre ga invasion de los Arabes....., p. 15.

J.SIMONET, Historeia de los Moxaraves de Espane (Madrid, 1903)pp.611-614.

بـد اليهود

ف١٤٢- ابو زكريا حَيُّوج . ابن جبرول . يحيا بن فاقوذا. ابن صديق

كانت إسبانيا خلال العصور الوسطى مركز الدراسات العبرية، وقد نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية بصورة مباشرة[٣]، وقد بدأ حركةَ بعث الدراسات التلمودية في قرطبة أبو يوسف حسداي بن إسحاق بن عزرا بن شبروط[٤] _(٣٣٣/٩٤٥-٣٥٩/٩٧٠) والوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر، بما بسط من العون لموسى بن حانوك[*][٥] ومدرسته، فلم تلبث أن أنجبت من أعلام الأدب رجالاً مثل مِناحيم بن سَروق الطرطوشي ودُنَاش بن لَبْراط (أولِبْراط)[٦]ممن افتتحوا عصر الازدهار للشعر العبري الحديث،ـوقد اقتفى أولئك الشعراء آثار الأدب العربي وتمثلوا صوره، وإن كان أساس لغتهم ولسانهم عبريين[٧].

وقد ألّف أولَ نحوٍ للغة العبرية يهوذا بنُ داود[٨]، (الذي يسميه بعض كُتّاب اليهود فيما خلفوه من كتب عربية: أبا زكريا بن داود الفارسي المنبوز بحيُّوج) وهو تلميذ مناحيم. وقد وضع نحوه باللغة العربية، ولهذا السبب لم يكن له صدى إلا بين يهود الأندلس،. وكذلك ألّف ابن جناح[٩](٣٨٤/٩٩٥-٤٤١/١٠٥٠) أهم كتبه المسمى «بالتنقيح» بلغة العرب. ويُعرف ابن جناح بين المسلمين بأبي الوليد مروان بن جَنَاح، أما النصارى فعرفوه باسم يونا (يونس) ومرينوس Merinos، وإليه يرجع الفضل في نشوء علم النحو في اللغة العبرية، وهو المعروف في مصطلح علماء يهود

(*) هناك تناقض بين ما يقوله المؤلف هنا وما يقوله شتاينشنايدر. ويبدو أن بالنثيا اعتمد هنا على ما ذكره يوسف وهارتويج دير نبورج. انظر:

MORIZ SREINSCHNEIDER: Dei arabische Literatur der Juden. Ein Betrag zur Literarurgeschichte der Araber, grossenteils aus handschriftlichen Qyellen. (Frankfyrt a M.1902)SS 119-120.

الأندلس بـ «جمل النحو العبراني»(*).

لوهاك فقرات من «كتاب المستلحق» لأبي الوليد مروان بن جناح، تعطي فكرة عن طريقة تأليف يهود الأندلس في النحو العبري بلغة عربية:

«أما بعد – أيها الأخ الحبيب والحميم القريب – أوضح الله لك المشكلات، وكشف عنك الخفيات، فإنه لم تزل نفسي منذ أعوام كثيرة وسنين جمة، إذ نحن في بيضتنا بعد، تطالبني باستلحاق ما أغفله الأستاذ الفاضل والرئيس الكامل أبو زكرياء حيوج – رحمه الله ونضر وجهه –، من استيفاء الأفعال ذوات حروف اللين والأفعال ذوات المثلين؛ لأنه اشترط في صدر هذين الكتابين أن يأتي بكلية هذه الأفعال، وأن يضم كل نوع منها إلى جنسه وكل شخص إلى نوعه، فأهمل كثيرًا جدًّا من الأجناس التي كان يلزمه الإبانة عنها والتدقيق على بعد غورها ودقة معانيها، وأغفل من الأنواع جملةً وضيَّع من الأشخاص جمهورًا.

ولست أُلْحقه في هذا ملامًا ولا أعصبه(*) مذمة، إذ القوة البشرية ضعيفة، وإذ الكمال والتمام لله وحده لا شريك له. وكنت أيضًا قد شَكَكْتُ عليه(*) مسائل كثيرة من كتابيه، فأردت ذكرها والتبيين لها، لما في ذلك من عظم الفائدة وجزيل المنفعة؛ ولأن هذين القبيلين – أعني حروف اللين وذوات المثلين – من أغمضِ شيء في

(*) بهذا العنوان ألف أبو زكريا حيوج كتابًا رئيسيًّا في النحو، وهو الذي أكمله وعلق عليه أبو الوليد مروان بن جناح برسائله مثل «المستلحق» و«التنبيه» و«التسجيل». انظر:

JOSEPH et HARTWG DERENBOURG: Opyscules et Traites d' Abou't- Walid Merwan obn Djanah de Cordoue. (Pares, 1880)

(كتب ورسائل لأبي الوليد بن جناح القرطبي).

(*) كذا في الأصل المطبوع، ولعلها: أعطيه.

(*) كذا في الأصل، ولعل صوابه: وكانت أيضًا قد أشكلت عليه.

اللغة العبرانية وأعوصه. فضبطني عن ذلك إلى وقتي هذا رياسة هذا الرجل في هذا الفن وجلالة قدره فيه واقتداره عليه، فإنه لم يتقدمه فيه متقدم ولا سبقه إليه سابق؛ وإن له علينا لحقًا(*)، بم أفادنا من هذه الصناعة وما أوضحه لنا من مستغلقها؛ وقربه منا من بعيدها. ومما كَسَّل همتي عن ذلك أيضًا ما نحن عليه من الجلاء المقدر علينا، والحل والترحال الذي نحن بسبيله(*). فلما ألححتَ عليَّ – أعزك الله – في ذلك، وألح عليَّ فيه معك جماعة من إخواني ممن شأنه البحث والطلب، لم أجد بدًّا من إسعافكم والصيرورة إلى مرغوبكم، فأستلحق في هذا الكتاب كل ما بلغه وُسعي وانتهت إليه مقدرتي من أجناس الأفعال وأنواعها وأشخاصها التي أضربَ عنها، وسميته بكتاب المستلحق.....»(*).

ثم يقول بعد قليل: «اعلم أنَّ من الأفعال ما لم يذكرها ذكرًا شافيًا ولا أحلّها محلها، بل أشار إليها وطواها في دَرج ذكره لغيرها. وربما أشار إلى بعضها في باب من أبواب الكلام الجُمْلي ولم يذكرها في الكلام المصنَّف، كإشارته إلى [הוּפְעַל](نِفَعال) في باب الانفعال الجُمْلي المقدّم ذكره في المقالة الأولى من كتاب حروف اللِّين على ذكر الأفعال التي فاءاتها ياء، فإنه ذكر هناك [שׁוּב וְשׁוּךְ וּוּבּוּ כִּבּוּ]

(*) في الأصل: لحقيقًا.

(*) الإشارة هنا إلى ما كان يعانيه يهود الأندلس في ذلك الحين من الاضطهاد واضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من ناحية إلى ناحية، معظم هذا الاضطهاد كان يوقعه اليهود بعضهم ببعض.

(*) أبو الوليد مروان بن جناح: كتاب المستلحق، ص١-٢. انظر: «كتب ورسائل لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي».

Opuscules et Traites d' Abou'l-Walos Merwan ibn Djanah de Cordoue.

Texte arabe publoe abec une traduction fracaise par JOSEPH DEREN BOYEG et HARTWIG CERENBOYEG, Paris, ١٨٨٠.

הוכה (نوكح -١ سفر أيوب ٧/٢٣ ونِيّوا كِحَاهُ، أشَعيا ١٨/١) ولم يذكر هذا الأصل في موضعه مع الأفعال الّتي فاءاتها ياء المصنَّفة على حروف المعجم في المقالة الأولى من كتاب حروف اللين على كثرتها في الـ (הקדם) (العهد القديم وعلى أنَّ فيه نوع آخر غير هذا النوع وهو: (הדהה הוספה השו הוספת ותת סב וונכתת) (هُوكَحْتَا – سفر التكوين ١٤/٢٤ – وهوكِيعَحْ –نفس السفر والإصحاح، فقرة ٤٤ – ووِ وكاحَتْ – تكوين١٦/٢٠- أو هُوَ يعَحْ) الذي تفسير الجميع إعداد وإحضار(*) أما (אוהה הוכתת) (هُوكَحْتَا) فهي أنها المرأة التي أعددتها وأحضرتها (كلام باللغة العبرية) (*)(لإسحاق)، وأما (... كلام باللغة العبرية) فتفسيره والكلّ وأعدّت وأحضرت، أي أنها أعدت وأحضرت جميع ما أمرها به من الكسوة، وهو انفعال متعدّ إلى (כפ) (كُول) مثل (ותת כפ וספה) (نِشْبَرْتِي- عزرا ٩/٤). وأيضًا (תתכלוכהכבד) فإن (בשבו) واقع على (כפ) لا يجوز في المعنى غير ذلك»(*).

لوكانت المناقشات بين علماء اليهود هؤلاء تجري على نفس الأسلوب الذي كان العرب يجرون فيه في مناقشاتهم فيما بينهم؛ مما يدل على تأثرهم الشديد بالثقافة العربية، ومثال ذلك هذه الفقرة لابن جناح يرد فيها على ما أخذه عليه إسماعيل (صمويل) بن النغرلة الناجد في كتابه المسمى «رسائل الرقاق»:

«أول ما ناقضنا فيه في هذه الرسالة الكريمة الأولى الواصلة إلينا الآن من جملة ما أبرق به من رسائل الرقاق، هو ما فسرناه في أول المستلحق وهو لما قلناه من أن ألفاظ.....] (השו הוכה הי ..... סב וונכתת)

(*) أي أن تفسير هذه الألفاظ.

(*) أي أن معنى هذا أن المرأة هي التي أعدتها وأحضرتها.

(*) نفس المرجع، ص٤-٥.

(هوكْيَحْ –سفر التكوين، ٤٤/٢٤ وهُوكَحْتَا –تكوين ١٤/٢٤ –ووتُوكَاحَت –نفس السفر والإصحاح فقرة ١٦) من أن لمعنى الجميع إعداد وإحضار، على ما هو أليق وأوفق بالمعنى، فطلب مناقضتنا بضروب من الكلام المختلط المَمْشوط المتسق(*) المضطرب. وذلك أنه أول شيء زعم أن تفسيري في هذه الكلمات [بأن معناها] إعدادٌ وإحضارٌ بدعة لم يقل بها أحد، فأنكره واستقبحه غاية الإنكار والاستقباح وقال: ما أقبح قول القائل: «هي المرأة التي أحضرها الله» من غير أن يأتينا بدليل على قبحه بأكثر من قوله: إن الشيوخ قد فسروا في هذا الكلمات «التوفيق». وقد كنا رأينا نحن منْ تفسير بعض من حشده علينا في هذه الكلمات ما رآه هو ولم نستحسنه؛ لأنه اشتقه من (הוֹכִיחַ הי) (نوكَحْ –سفر القضاة، ٦/١٨) وهذا عندنا غير جائز في الاشتقاق، لأن النون في (הוֹכִיחַ הי) (نوكح، تكوين ٢/١٤) هي أَصْلية، يدلك على ذلك قولهم (הוֹכִיחַ הי) (نِكْحُو) وأيضًا (תּוֹכִיחוּ) (نِكَاحُو، أشعيا ٢/٥٧) والواوات في هذه الألفاظ هي فاءات الأفعال، وهي منقلبة من ياءات وهي على زنة (תּוֹכִיחִי וְהוֹכִיחִי וְתּוֹכִיחִי) (حُوحِيل وحُوحِلْني –أيوب ١١/٣٢ ونُوحالاه –عزرا ٥/١٩)، إلا أن هذا الأصل غير متعدّ، فقد بطل معنى التوفيق ببطلان استدلال المستدل عليه»[*].

وعن طريق الكتب العربية تعلم أول فيلسوف يهودي وهو سَلُومون بن يهوذا بن جَبِيرُول (١٠٢١/٤١١- ١٠٧٠/٤٦٢)[١٠]. الذي يسميه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى، والنصارى أَفيسبرون Avicebron ؛ فقد قرأ كتب فلاسفة العرب وصقل ملكته بما فيها من الآراء والأفكار.

(*) كذا في الأصل ولعل صحتها: المنسَّق.

(*) نفس المرجع، المقدمة، ص٥١.

ويقول مونك: «إن ابن جبيرول لحقيق بأن يسمى الباعث الحقيقي للشعر العبري بفضل ما نظم من شعر، وبأن يعتبر صاحب الصدارة بين شعراء اليهود في العصور الوسطى، وربما كان أكبر شعراء عصره. نعم إنه صب شعره على قوالب الشعر العربي، ولكنه فاق شعراء العرب في مراتب الشاعرية وفي سمو أفكاره وإحساسه الشاعري».

أما في باب الفلسفة فقد ألف كتابه المسمى «ينبوع الحياة» باللغة العربية، وتأثر في تأليفه بمذهب ابن مسرة القائم على آراء أنبادقليس الزائف ومذهب الأفلاطونية الحديثة. ولم ينتشر هذا الكتاب بين اليهود بسبب لغته العربية، وبسبب ما ذهب إليه فيه من القول بوحدة الوجود.

أما النصارى فقد عرفوا هذا الكتاب عن طريق ترجمته اللاتينية التي قام بها « دومنجو جنذالذDominicus Gundissalinus» وكان لهذا الكتاب الذي عرف في اللاتينية باسم(*) Fons Vitae أثر ظاهر عند دَنْس سكوتوسDuns Scottus وعند مفكري المدرسة الأوغسطينية، بل نجد أثره عند جيوردانو برونو في القرن السادس عشر الميلادي.

ولا يظهر الأثر العربي في كبار مؤلفات ابن جَبرول فحسب، بل يتجلى كذلك في كتابته الصغيرة، كما نرى في «النحو» العبري الذي نظمه في قصيدة عبرية صاغها في بحر الرجز العربي تتألف من أربعمائة بيت، وهو يتحسر فيها على انصراف إخوانه في الدين من أهل سرقسطة عن لغتهم المقدسة، ويسميهم «الجماعة

(*) ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب ولم تبقَ لنا إلا ترجمته اللاتينية وقطعة من ترجمته العبرية. وكان العلماء يشكون في نسبته إلى ابن جبيرول، حتى أثبت ذلك سالومون مونك. انظر:
SALOMON MUNK. Melanges de philosophie iuive et arabe (paris, 1859)pp.170.sqq.

العمياء»، إذ كان بعضهم يتكلم –على حد تعبيره – لغة إيدوم (Edom عجمية أهل الأندلس) وبعضهم الآخر يستعمل لغة كِدَار (Kedar اللغة العربية)(*). ويتجلى ذلك الأثر كذلك في رسالته المسماة «كتاب إصلاح الأخلاق»(*)، وهي رسالة في الأخلاق العملية، وكتابه «مختار اللآلئ» وهو مجموعة من حكم فلاسفة اليونان والمسلمين. وكلا هذه الرسالة وذلك الكتاب باللغة العربية.

وكان لآراء الغزالي في الأخلاق والتصوف أثر ظاهر في الكتاب المسمى «الهداية إلى فرائض القلوب» الذي ألفه بالعربية بَحْيَا بن يوسف بن فاقودا(*)(١١) معاصر ابن جبرول، وقد سماه الناس «توماس دكِمْبِس Tomas de Kempis» اليهودي.

وإليك طرفًا من كلام بحيا في فاتحة «الهداية»:

«فلما عزمت على إثبات أصول فرائض القلوب في كتابي هذا استعملت قياسي في اختيارها، لتكون جامعة لغيرها وحاوية لسائرها، فوضعت أصلها الأعلى وأُسَّها الأكبر إخلاص التوحيد لله.

ثم نظرت إلى ما يلزمنا من اتباع التوحيد به من الفرائض المذكورة المشاكِلة له

(*) CF:MBILLAS BALLICROSA, Srlomo ibn Gabirol como paeta y filosofo (Madrid-Barcelona, 1945)oo,48-49.

(*) نشر النص العربي مع ترجمة إنجليزية وايز، انظر:

ST. WISE, The Improvement of Maral Qyalities (Columbia University Oriental Series) Now-York. 1905.

(*) هذه هي الصورة العربية الصحيحة للاسم، انظر:

GEORGES BAJDA, La Theologie Ascetique de Bahya ibn Paquda (Paris. 1947)pp. 7-8

منا، فعلمت علمًا يقينًا أن الخالق تعالى لمّا كان واحدًا حقًا ولا يلحقه اسم جوهر ولا عرض، ولم يتجاوز فكرنا إلى إدراك ما ليس بجوهر ولا عرض امتنع علينا إدراكه من جهة ذاته، فلزم تعريفنا به وإداركنا لوجوده من جهة مخلوقاته، وهو باب الاعتبار بالمخلوقين، فوضعت الاعتبار أصلاً ثانيًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم تأملت إلى ما يلزم للواحد الحق من الربوبية، وما يحق على المخلوقين من عبوديته، فوضعت التزام الطاعة له أصلاً ثالثًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم تبينت إلى ما يلزم الواحد الحق من انفراده بتدبير الكل، وأن النفع والضر ليس في يد غيره، ولا في مقدور سواه إلا عن إذنه، لزمنا التوكل عليه والاستسلام إليه، فوضعت التوكل أصلاً رابعًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم تفكرت في معنى الواحد الحق من اختصاصه بذاته، ولا يشارك شيئًا ولا يشبه شيئًا، أَتبَعْت ذلك إفراده بالطاعة والعبادة بإخلاص عملنا لوجهه، إذ لا يقبل العمل المشترك فيه غيره معه، فوضعت إخلاص العمل له أصلاً خامسًا لجملة فرائض القلوب.

ثم أجلت فكري فيما يلزمنا للواحد الحق من التعظيم والإجلال، إذ ليس كمثله شيء، فتبع ذلك التواضع له كحسب ما يستأهله، فوضعت التواضع أصلاً سادسًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم لما تصفحت ما يجري على الناس من الغفلة والتقصير فيما يلزمهم من طاعة الله – جل وعز – وكان وجه استدراك غلطهم وتقصيرهم التوبة والاستغفار، وضعت التوبة أصلاً سابعًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم لما فحصتُ عن إدراك حقيقة لوازمنا لله – عَزَّ وَجَلَّ – من الفرائض الظاهرة

والباطنة، وعلمت أنها لا تصح منا(*) إلا بمحاسبة أنفسنا عن ذلك لله والتقصي عليها، وضعت المحاسبة للنفس أصلاً ثامنًا لجملة من فرائض القلوب.

ثم رددت خاطري في معنى الواحد الحق، فرأيت أن توحيده بإخلاص لا يصح في نفس المؤمن إذا سكر قلبه من شراب حب الدنيا واسترساله(*) إلى شهواته البهيمية، فإذا رام تفريغ ضميره وإخلاء باله من فضول الدنيا بالزهد في لذاتها تَمَكَّنَ التوحيد التام من قلبه وخلصت له فضيلته، فوضعت الزهد في الدنيا أصلاً تاسعًا من فرائض القلوب.

ثم بحثت عما يلزمنا للخالق تعالى، الذي هو غاية كل أمل ونهاية كل رجاء، إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما يستوجبه منا من المحبة في رضاه والخوف من سخطه اللذين هما غايتا السعادة والشقاوة، كقول الولي عليه السلام (כי ובל בתתו הייב בוזוכו) فوضعت المحبة في الله تعالى – عَزَّ وَجَلَّ – أصلاً عاشرًا لجملة من فرائض القلوب»(*).

وأسلوبه في الكتاب، كما هو ظاهر، شديد الشبه بأساليب المسلمين، مما حدا بسالومون يهودا وجولدتسيهر إلى مقابلته ببعض ما كتب المسلمون في هذا الباب، فتبين للأول منهما أن بحيا ينقل في بعض الأحيان نقلا حرفيًّا عن بعض كتب الغزالي، وأورد فقرات من كتاب «الحكمة في مخلوقات الله» لأبي حامد، وقابلها بما يشبهها من كلام بحيا في «الهداية». وهاك نموذجًا من هذه المقابلة:

(*) وفي الأصل المطبوع: لا تصبح منا.

(†) في نسخة أخرى: واسترسل إليها فإذا، ولعل صحة العبارة: واسترسل إلى.....

(*) A.S. YAHUDA, AL- hidaja ila Fara-al Qulub. (Leiden, ١٩١٢)

ص٢٦-٢٨ من النص العربي.

«الحكمة» للغزالي

انظر كيف رُتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب، فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لملِك فيها حشم وقوم موكلون بالدار؛ فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ما لهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلَى أن يعالج ويهيأ، وآخر لإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه أخص مما قبل، وآخر لكسح ما في الدار من الأقذار وإخراجه. فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه، والدار هي البدن، والحشم هي الأعضاء.

والقوم هي هذه القوى الأربع التي هي النفس، وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر، والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك.

«الهداية» لبحيا

فانظر كيف وُكلت هذه القوى في البدن للقيام عليه بما فيه صلاحه، فصارت بمنزلة دار الملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار: فواحد لاقتضاء حوائج الحشم وإيرادها إلى خازن الملك، وقيِّم ثان يقبض ما يورده الأول ويخزنه في الدار إلى أن يهيأ ويصلح، وقيم ثالث لعلاج ما اختزن وإصلاحه وتهيئته وتفرقته في الحشم، وقيم رابع لكسح ما في الدار من الأقذار والأوساخ وإخراجها منها. ثم فكّر في القوى النفسانية ومواقعها من منافع الإنسان نحو الفكر والحفظ والنسيان والحياء والعقل والنطق.

أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله؟. كان لا يحفظ ما له وما عليه (*)، وما أصدر وما أورد، وما أعطى وما أخذ، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له، ولم يذكر من أحسن

(*) في الأصل: وكان لا.....

إليه ولا من أساء له، ولا من نفعه ممن ضره. وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه، ولا لعلم ولو درسه، ولا ينتفع بتحريره، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى. فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها، فكيف جميعها؟

وقد ألف دَيّان (قاضي) اليهود في قرطبة – أبو عمر يوسف بن صِدِّيق[١٢] المتوفى سنة ١١٤٩/٥٤٣ – كتابًا في المنطق وكتابًا في الفلسفة الدينية يسمى «الكون الأصغر» باللغة العربية، لوقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، ولم تبقَ لنا إلا ترجمته العبرية المعروفة باسم سِفر هاعولم هاقَطُون].

وكان ابن صديق مطلعًا على كتابات أفلاطون وأرسطو و«رسائل إخوان الصفاء» وبالعربية كذلك ألف ليفي بن التِّبان[١٣]، الذي يكنيه اليهود في كتاباتهم بأبي الفهم، كتابه المعروف بـ «المفتاح» في نحو العبرية؛ وهو من أهل سرقسطة، وقد رأى قوات ألفونسو الأول ملك أرغون المعروف بالمقاتل تدخل سرقسطة وتنتزعها من دولة الإسلام نهائيًا سنة ١١١٨/٥١١. وألف سليمان بن زَقْبيل (أو سَقْبيل) «مقامة» فكهة على طراز مقامات الحريري.

ف١٤٣- موسى بن عزرا، ويهودا هلاوي (هاليفي). إبراهام بن داود. الجزيري. بنو طيبون

كان موسى بن عزرا (١١٣٨/٥٣٢)[١٤] شاعرًا يهوديًا من أهل غرناطة، وكان شقيًا في حياته مستغرقًا في هواه، وهو يتغنى في «ديوان» شعره بذكر الخمر والهوى

والمسرة ولذاذات العيش على طريقة شعراء العرب(*). أما كتابه المسمى «المحاورة والمذاكرة» فقد ضاع أصله العربي ولم تبقَ لنا إلا ترجمته العبرية، وهو رسالة في فن الكتابة وتاريخ لشعراء اليهود من أهل الأندلس وآثارهم، وهو يضم كذلك أطرافاً من الشعر العربي(*). لوله كذلك كتاب قيم آخر هو «الحديقة في معنى المجاز والحقيقة»(*)، وقد اندثر أصله العربي ولم تبقَ لنا إلا فقرات من ترجمته العبرية المعروفة باسم «أرُجات هابوشِم»؛ وهو كتاب ذو طابع فلسفي يجمع طائفة من الأمثال والحكم.

وإليك قطعة من شعر موسى بن عزرا صاغها في قالب القصائد العربي المعروف، وهي من شعره الزهدي:

ما لحبيبي، ما له يزري بي ويخاصمني ..
مع أن قلبي لن يزال يميل إليه كأنه عشب مياس؟
أيكون قد نسي ذلك العهد الذي كنت أمضي فيه

(*) نشر مختارات منه برودي، انظر:

H,BEODY, Selected poems of Moses ibn Ezra. Philadeohia, 1934.

ويذهب معظم مؤرخي موسى بن عزرا إلى أن آلام الهوى كانت سبب شقوته، ولكن مليلس قاليكروسا ينقض هذا الرأي ويذهب إلى أن مرجع ذلك هو ما أصاب يهود غرناطة على يد أهلها من البربر واضطراره إلى الهجرة مع من هاجر من البلد. انظر:

Jose MaMLLAS VALLICROSA, La Poesia Sagrada. Hebraicoespanoia (2a ed.Madeid - Barclona, 1948) pp.93-95.

(*) انظر

MILLAS VALLICROSA, la poesia Sagrada Hebraicoespanola (2a ed. Madrid-Barcelona, 1948) p.96.

(*) نفس المرجع والصفحة.

في الأرض الحزون .. وكيف أدعوه اليوم .. وهو لا يستجيب؟
بلى! وإنني لن أزال في انتظاره، ولو كان علي يديه حتفي ..
وإن أخفى عني وجهه فلن أنفك أرقب عطفه وأتوجه إليه ..
أجل، ولن تعدو رحمة الله عبده
إذ كيف يمكن أن يتغير الذهب الخالص ويتحول؟!(*)

أما يهوذا بن ليفي الطليطلي (٤٧٧/١٠٨٥ – ٥٣٧/١١٤٣)[١٥] (أو يهودا هاليفي)، الذي يكنيه العرب بأبي الحسن، فقد نظم أشعاره في قوالب وموضوعات عربية، ويؤكد من ترجموا له أنه كان يكتب العربية في جمال نادر. وقد ألف رسالته المسماة «الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل» في عربية بليغة، ولدينا نسخة مخطوطة منها في مكتبة أكسفورد، وقد ترجمها إلى العبرية يهودا بن طبون باسم «سِفِرْ ها خُزَرِ» أي كتاب الخزر، أو الكتاب الخزري وإليه يشار بهذا الاسم الأخير في كثير من المراجع، وعن العبرية نقله يوهان بوكستورف Johannes Buxtorf إلى اللاتينية عام ١٦٦٠، وعنها نقله الحاخام يعقوب بن دانا R. Jacob Abendana إلى الإسبانية بعد ذلك بثلاث سنوات باسم «كوثاري ryzaCu». وفي سنة ١٨٨٦ – ١٨٨٧ نشر هارتويج هيرشفيلد في لايبسيك النص العربي للكتاب مع الترجمة العبرية*، وقد استند يهودا في تأليفه إلى حادث تاريخي، وهو اعتناق ملك الخزر لليهودية لبعد

(*) BRODY, op. cit. nu. 41.

وقد ترجمت عن الترجمة الإسبانية التي نشرها مليلس فاليكروسا في المرجع آنف الذكر، ص٢٦٠، وهو يخاطب الله في هذه القطعة.

(*) انظر:

Cuzary, Diàlogo filosofico por YEHODA HALEVI (siglo XII) traducido del àrabe al hebreo por YEHUDA ABENRIBBON, y del hebrèo al Castellano por R. JACOB ABENDANA (Madrid, 1910) p. XII-XVII.

أن عُرض عليه الإسلام والنصرانية فلم يجد فيهما حاجته!، ولهذا نراه يشيد بذكر دينه وينتصف له من الإهانات الكثيرة التي كان الناس يلحقونها به. وهذا الكتاب الأصيل يذكرنا «بكتاب الأحوال» Libro de los Estados للدون خوان مانويل، إذ إن موضوعيهما متشابهان؛ وفيه مَشابه كذلك من أسطورة «بَرلعام ويوسافات»، ولا بد أنه كان النموذج الذي احتذاه رايموندوس لوليوس في تأليف كتابه المسمى «كتاب الكافر والعلماء الثلاثة»: Libro del gentil e los tres savis.

وكان لمؤلفات الفارابي وابن سينا أثر ظاهر في المؤلفات الفلسفية التي خلفها إبراهام بن داود الطليلطلي (٥٠٣/١١١٠ – ٥٧٥/١١٨٠)[١٦]، الذي حاول أن يوفق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة أرسطو. لوقد كتب بلغة العرب كُتبه الّتي لم يبقَ لنا منها إلى الترجمات العبرية لبعضها، وأهمها: إيموُناه راماه (العقيدة السامية) وسِفرْ ها قَبّاله (كتاب المأثور). أما «الزَّنج» الذي وضعه فقد ضاع![*]. وكان إبراهام بن عزرا بن مِيَّر، الذي يسمى في الكتابات العربية بأبي إسحاق إبراهيم بن المجيد(٤٨٤ /١٠٩٢ – ٥٦٢/١١٦٧)[١٧] المفكر اليهودي القلق الجَوّال، يجيد أسباب الترسيل العربي. أما يهودا الجَزِيري بن شلومون (سليمان)[١٨] فقد أسخطه ما رأى من تفضيل أهل ملته للغة العرب على العبرية، وحاول في كتاباته أن يثبت أن هذه الأخيرة لا تقل عن العربية ثروةً وجمالاً، فأقبل على مقامات الحريري وترجمها إلى العبرية، وألف قصة ذات طبع مسرحي تسمى تَحْكِيموُني قلّد بها أسلوب «المقامات» ونسج فيها علىٰ منوال «ابن سقبيل» في كتابه الفكِه الذي يحمل اسمًا مشابهًا لاسم قصة

(*) ISAAC HUSIK, A History for Mediaeval Jewish Philosophy. (Philadelphia, 1946) pp. 197-198.

الجزيري هذه(*)

وفي أواخر القرن الثاني عشر نشط اليهود في نشر عدد كبير من مؤلفات العرب بين إخوانهم في الدين من أهل إسبانيا وجنوبي فرنسا. ومن أمثلة ذلك ما فعله إبراهام ابن صمويل بن ليفي بن حَسْدَاي صاحب قصة «الأمير والدرويش» (بنْ هاملِك وِها نز ير، وهي مقتبسة من أسطورة برلَعَام ويوسافات)، فقد ترجم إلى العبرية كتبًا عربية كثيرة منها كتاب «ميزان العمل» للغزالي، ترجمه بعنوان مُزْنِي صيدق، أي ميزان الصدق. وكذلك اجتهد مِشُلَّم بن يعقوب من أهل لُونِل (بجنوبيّ فرنسا) في النهوض بحركة الترجمة من العربية إلى العبرية، وحض أهل دينه من اليهود البروفنسيين على الإقبال على العلوم. وكان من أثر جهوده أن تمت ترجمة الكثير مما ألفه اليهود بالعربية إلى العبرية، ككتاب «الهداية إلى فرائض القلوب» لبحيا، وكتاب «إصلاح الأخلاق» و«مختار اللآلئ» لابن جَبرُول، و«الكتاب الخزري» ليهودا بن ليفي، ورسائل ابن جناح في النحو واللغة العبريين. وهذه الترجمات كلها صحيحة ولكنها مملة، وقد يختل في بعضها سياق اللغة العبرية بسبب الإسراف في التزام حرفية الأصول العربية التي نُقلت.

(*) هناك خلاف في الطريقة التي يكتب بها اسم هذه القصة في المراجع التي نعتمد عليها في تقويم هذا النص، فبالنثيا يكتبه Taquemoni، وملياس فاليكروسا يكتبه Tahkêmoni ومنندذ بلايو يكتبه Tachkemoni

Cf. MENENDEZ Y PELAYO, Estudios y discursos de de critica historica y literaria (Madrid, 1941) vol. 1 p. 206

J.MILLAS VALLICROSA, La pesia sagrada hebraicoespanola. P. 135.

STEINSCHNEIDER, Die hebraishe Uebersetzungen .., p. 428.

ف ١٤٤ - موسى بن ميمون - المترجمون

ويعتبر موسى بن عبيد الله بن ميمون القرطبي[١٩] (١١٣٥/٥٢٩ - ١٢٠٤/٦٠٠) أمير مفكري الأندلس. درس ابن ميمون في مدارس اليهود والعرب في قرطبة، ومن بين شيوخه تلميذ من تلاميذ ابن باجة. وهو مدين - دون ريب - لما نشره العرب من فلسفة أرسطو بما يمتاز به من ذهن منطقيّ مرتب، وعقل قادر على تصنيف الموضوعات في نظام وعرضها في وضوح، وتلك هي ميزته الكبرى. وقد ألف بالعربية كتابه المسمى «رسالة في الردة»، وكان دافعه إلى تصنيفه ما لجأ إليه الموحدون من إرغام يهود مراكش على اعتناق الإسلام؛ وكتب بالعربية كذلك كتابه المسمى «السراج» وقد ألفه في القاهرة، وهو شرح واضح منهجي دقيق «للمِشْنا»، وقد ظل هذا الكتاب خاملاً لم يلتفت إليه إلا القلائل مع ما له من الأهمية. وكتب بالعربية «رسالة العزاء» إلى يعقوب الفيومي وإلى جماعات اليهود في اليمن، ممن اضطرهم الفاطميون إلى دخول الإسلام عندما نزلوا تلك البلاد (١١٧٢/٥٦٧).

وبلغة العرب أيضًا ألف «كتاب الفرائض» يدفع به ما وُجه من النقد إلى كتابه «تثنية التوراة»، أما أشهر كتبه «دلالة الحائرين» فقد كُتب في الأصل بالعربية، ومعظم الآراء التي يحويها عربي، وقد ترجم ذلك الكتاب إلى العبرية واللاتينية ولغات أوروبية أخرى كثيرة (من بينها الإسبانية، ترجمه إليها بدرو الطليطلي في القرن الخامس عشر)؛ وهو يعتبر بحق جُماع ما في اليهودية من لاهوت وفلسفة، وقد حاول ابن ميمون أن يوفّق فيه العقل والدين كما فعل ابن حزم وابن رشد قبله، وكما سيفعل القديس توما الأكويني من بعده.

ولم يظهر بين اليهود بعد موسى بن ميمون مفكرون ذوو شأن، وانصرف جل اهتمامهم إلى الترجمة، وخاصة في قطلونية وبروفانس (جنوبي فرنسا) وكانت الثقافة العبرية قد تركزت فيهما؛ وقد ترجم اليهود هناك المؤلفات العربية عن

أصولها أو عن ترجماتها اللاتينية التي قام بها مترجمو طليطلة. ونستطيع أن نضيف إلى أسماء من ذكرنا من نَقَلَةِ اليهود عددًا آخر عظيمًا ممن عمل في قطونية وبروفانس، ولكننا نكتفي بذكر بعضهم مثل يعقوب بن أبًا ماري صهر صمويل بن طيبون، وكان أول من ترجم عن ابن رشد إلى العبرية، ولونيموس بن مايير، وكالونيموس بن تُدرُس، وليفي بن جرسون (١٢٨٨/٦٨٦ - ١٣٤٤/٧٤٤)، وموسى الأريوني، وغيرهم ممن حافظوا على أثر علوم العرب وفلسفتهم خلال العصر الوسيط الأول[٢٠].